آيات .. من كتاب الله ..

"في ظلال القرآن" الشهيد : سيد قطب

« يَا أيُّها الذين آمنوا لَا تَدخُلوا بُيُوتاً غَيرَ بُيُوتِكُم حَتَّى تَستَأنِسُوا وَتُسلِّموا عَلَى أهلِهَا ، ذَلِكُم خَيرٌ لَكُم لَعَلَّكُم تَذَكَّرون . فَإن لَم تَجِدوا فِيهَا أحَداً فَلَا تَدخُلوها حَتَّى يُؤذَنَ لَكُم .وَإن قِيلَ لَكُم : ارجِعُوا فارجِعُوا هُوَ أزكَى لكم، واللهُ بِمَا تَعمَلون عَليم . ليسَ عَليكم جُناحٌ أن تَدخُلوا بُيُوتاً غَيرَ مَسكُونَةٍ فيها مَتَاعٌ لَكُم . واللهُ يَعلَمُ ما تُبدون وَما تَكتُمُون » .

لقد جعل الله البيوت سكنا ، يفيء إليها الناس ، فتسكن أرواحهم ، وتطمئن نفوسهم ، ويأمنون على عوراتهم وحرماتهم ، ويلقون أعباء الحذر والحرص المرهقة للأعصاب !

والبيوت لا تكون كذلك إلا حين تكون حرما آمناً لا يستبيحه أحد إلا بعلم أهله وإذنهم . وفي الوقت الذي يريدون ، وعلى الحالة التي يحبون أن يلقوا عليها الناس .

ذلك إلى أن استباحة حرمة البيت من الداخلين دون استئذان ، يجعل أعينهم تقع على عورات ، وتلتقي بمفاتن تثير الشهوات ، وتهيء الفرصة للغواية ، الناشئة من اللقاءات العابرة والنظرات الطائرة ، التي قد تتكرر فتتحول إلى نظرات قاصدة ، تحركها الميول التي أيقظتها اللقاءات الأولى على غير قصد ولا انتظار ، وتحولها إلى علاقات آثمة بعد بضع خطوات أو إلى شهوات محرومة تنشأ عنها العقد النفسية والانحرافات .

ولقد كانوا في الجاهلية يهجمون هجوما ، فيدخل الزائر البيت ، ثم يقول : لقد دخلت ! وكان يقع أن يكون صاحب الدار مع أهله في الحالة التي لا يجوز أن يراهما عليها أحد .

وكان يقع أن تكون المرأة عارية أو مكشوفة العورة ، هي أو الرجل . وكان ذلك يؤذي ويجرح ، ويحرم البيوت أمنها وسكينتها ، كما يعرض النفوس من هنا ومن هناك للفتنة ، حين تقع العين على ما يثير .

من أجل هذا وذلك أدب الله المسلمين بهذا الأدب العالي . أدب الاستئذان على البيوت ، والسلام على أهلها لإيناسهم ، وإزالة الوحشة من نفوسهم ، قبل الدخول : **« يا أيها الذينَ آمنوا لا تَدخُلوا بُيوتاً غَيرَ بيوتِكُم حَتىٰ تَستَأنِسوا وَتُسَلِموا على أهلِها »** ..

ويعبر عن الاستئذان بالاستئناس — وهو تعبير يوحي بلطف الاستئذان ، ولطف الطريقة التي يجيء بها الطارق ، فتحدث في نفوس أهل البيت أنسا به ، واستعدادا لاستقباله . وهي لفتة دقيقة لطيفة ، لرعاية أحوال النفوس ، ولتقدير ظروف الناس في بيوتهم ، وما يلابسها من ضرورات لا يجوز أن يشقى بها أهلها ويحرجوا أمام الطارقين في ليل أو نهار .

وبعد الاستئذان إما أن يكون في البيوت أحد من أهلها أو لا يكون . فإن لم يكن فيها أحد فلا يجوز اقتحامها بعد الاستئذان ، لأنه لا دخول بغير إذن :

« فإنْ لَمْ تَجدوا فيها أحداً فلا تَدخلوها حَتى يُؤذَن لَكُم » ..

وإن كان فيها أحد من أهلها فإن مجرد الاستئذان لا يبيح الدخول ، فإنما هو طلب للإذن ، فإن لم يأذن أهل البيت فلا دخول كذلك . ويجب الانصراف دون تلكؤ ولا انتظار :

« وإنْ قِيلَ لَكُمْ : ارجِعوا فارجِعوا هُو أزكىٰ لَكُم » ..

ارجعوا دون أن تجدوا في أنفسكم غضاضة ، ودون أن تستشعروا من أهل البيت الإساءة إليكم ، أو النفرة منكم . فللناس أسرارهم وأعذارهم . ويجب أن يترك لهم وحدهم تقدير ظروفهم وملابساتهم في كل حين .

« واللهُ بِما تَعمَلونَ عَليم » .. فهو المطلع على خفايا القلوب ، وعلى ما فيها من دوافع ومثيرات .

فأما البيوت العامة كالفنادق والمثاوى والبيوت المعدة للضيافة منفصلة عن السكن ، فلا حرج في الدخول إليها بغير استئذان ، دفعا للمشقة ما دامت علة الاستئذان منتفية :

«ليسَ عَليكم جُناحٌ أن تَدخُلوا بُيوتاً غيرَ مَسكونَةٍ فيها مَتاعٌ لَكُم» .

« واللهُ يعلَمُ ما تُبدون وما تَكتُمون » .. فالأمر معلق باطلاع الله على ظاهركم وخافيكم ، ورقابته لكم في سركم وعلانيتكم . وفي هذه الرقابة ضمان لطاعة القلوب ، وامتثالها لذلك الأدب العالي ، الذي يأخذها الله به في كتابه ، الذي يرسم للبشرية نهجها الكامل في كل اتجاه .

إن القرآن منهاج حياة . فهو يحتفل بهذه الجزئية من الحياة الاجتماعية ، ويمنحها هذه العناية ، لأنه يعالج الحياة كلياً وجزئيا ، لينسق بين أجزائها وبين فكرتها الكلية العليا بهذا العلاج . فالاستئذان على البيوت يحقق للبيوت حرمتها التي تجعل منها مثابة وسكنا . ويوفر على أهلها الحرج من المفاجأة ، والضيق بالمباغتة ، والتأذى بانكشاف العورات . وهي عورات كثيرة ، تعني غير ما يتبادر إلى الذهن عند ذكر هذه اللفظة .. إنها ليست عورات البدن وحدها . إنما تضاف إليها عورات الطعام ، وعورات اللباس ، وعورات الأثاث ، التي قد لا يحب أهلها أن يفاجئهم عليها الناس دون تهيؤ وتجمل وإعداد . وهى عورات المشاعر والحالات النفسية ، فكم منا يحب أن يراه أناس وهو في حالة ضعف يبكى لانفعال مؤثر ، أو يغضب لشأن مثير ، أو يتوجع لألم يخفيه عن الغرباء . ؟ !

وكل هذه الدقائق يرعاها المنهج القرآني بهذا الأدب الرفيع ، أدب الاستئذان . ويرعى معها تقليل فرص النظرات السانحة الالتقاءات العابرة ، التي طالما أيقظت في النفوس كامن الشهوات والرغبات ، وطالما نشأت عنها علاقات ولقاءات ، يدبرها الشيطان ، ويوجهها في غفلة عن العيون الراعية ، والقلوب الناصحة ، هنا أو هناك !

ولقد وعاها الذين آمنوا يوم خوطبوا بها أول مرة عند نزول هذه الآيات . وبدأ بها رسول الله ــ عليه الصلاة والسلام .